

التوليفة البشرية :

وصلنا الآن الى فترة فارغة من السجلات الحفرية ، فترة امتد طولها ما بين خمسة وعشرة ملايين سنة . وهذه الفترة الفارغة تخفى - لا مناص - أكثر أجزاء القصة اثارا للفضول : عندما انفصل الخط الذى يقود الى الانسان نهائيا عن خط القردة العليا المعاصرة ، ولو أننا لم نعر بعد على أى سجل قاطع عن ذلك ، لنصل بالتأكيد الى أقارب الانسان منذ نحو خمسة ملايين سنة مضت .

الاسترالوبيثيكا كائن من أبناء عمومتنا وان كان لا ينتسب الى الخط المباشر الذى يقود الى الانسان ، وقد كان مخلوقا نباتيا ثقیل البنية . الاسترالوبيثيكا رובصتس حيوان شبه انسانى ، والخط الذى يقود اليه ينتهى به ، اذ انقطع بعده ، ومرة أخرى سنجد أن الشواهد التى تشير الى أنه كان يعيش على النباتات موجودة فى الأسنان، وهى شواهد مباشرة تماما : فالأسنان التى بقيت كانت تحوى حفرا سببها الحصى الناعم الذى كان يلتقطه مع جذور النباتات التى كان يلتهمها .

أما ابن عمه الموجود على نفس خط الانسان فقد كان أخف وزنا كما يؤكد فكه ، والأغلب أنه كان أكل لحم ، وهو أقرب الكائنات الى ما يطلق عليه عادة اسم « الحلقة المفقودة » ، نقصد استرالوبيثيكا أفريكانس ، الذى تمثله واحدة من مجموعة من الجماجم الحفرية التى عثر عليها فى شتركو فتاين بالترانسفال وبمناطق أخرى فى أفريقيا كانت الجمجمة لأنثى بالغة ، ولو أن طفل تونج - الذى ابتدأت به - عاش ليكتمل نموه لأصبح شبيها لها : كان حيوانا قائما تماما ، يستطيع المشى وله مخ كبير نسبيا يزن ما بين رطل ورطل ونصف ، وهذا هو نفس حجم مخ القردة العليا الكبيرة الآن ، ولكن جسمه كان بالطبع أصغر حجما لا يزيد طوله عن أربعة أقدام . والحقيقة أن الكشف الأخيرة لريتشارد ليكى توحى بأن المخ قد أصبح ، بوصولنا الى مليونى سنة من الآن ، أكبر حتى من ذلك .

وبهذا المخ الأكبر حجما توصل سلف الانسان الى اختراعين بارزين: لدينا دليل مادي على واحد منهما ، ولدينا دليل استنتاجي على الآخر . أما الدليل المادي فهو أنه منذ ٢ مليون سنة صنع استرالوبيثيكا أدوات حجرية بدائية ، عندما تمكن بضربة بسيطة على حجر الكوارتز أن ينتج حجرا ذا حرف حاد . ولم يرق الانسان فى تطوره خلال المليون سنة التالية بتغيير هذا النوع من الأدوات . لقد وصل الى ابتكاره الأساسى ،

وهو الاجتهاد المتعمد كى يعد ويدخر شظية يستخدمها فيما بعد عند الحاجة . وبهناك التطور الهائل فى المهارة والحكمة ، بهذا العمل الرمزي لكشف المستقبل ، تخطى العائق الذى تفرضه الطبيعة على كل الكائنات الحية الأخرى . أما الاستعمال المستمر النفس هذه الاداة طيلة هذه الفترة فانما يعنى قوة هذا الابتكار . كان يمسكها بطريقة بسيطة ، عن طريق ضغط نهايتها اللمسية على راحة كفه . وهو يقبض عليها باحكام (كان لأسلاف الانسان ابهام قصير وبذا فلم يكونوا بارعين فى استخدام اليد ، ولكنهم استطاعوا أن يستخدموا قبضة اليد الحكمة) . وكانت هذه الاداة بالطبع أداة آكل لحم ، يضرب بها ويقطع .

أما الابتكار الثانى فقد كان اجتماعيا ، ويمكن الاستدلال عليه عن طريق بعض الحسابات البارة ، ذلك أن الجماجم والهياكل العظمية لالسترالوبيثيكاص والتي عشر عليها بأعداد كبيرة نسبيا ، تبين أن معظمها قد مات قبل سن العشرين ، وهذا يعنى وجود كثير من اليتامى ، فقد كانت لالسترالوبيثيكاص بالتأكيد طفولة طويلة ، مثل كل الثدييات ، فيبقى الفرد منها - اذا عاش - طفلا ، قل مثلا ، حتى عمر عشر سنوات وعلى هذا فلا بد أن يكون هناك تنظيم اجتماعى يمكن به أن ترعى الأطفال ، وأن يتبناهم البعض ، وأن يعتبروا جزءا من المجتمع ، ومعنى هذا أنهم بشكل عام كانوا يشقون أطفالهم . وكانت هذه خطوة هائلة نحو التطور الحضارى .

متى نستطيع أن نقول ان أوائل الانسان قد أصبحوا الانسان نفسه ؟ ان هذا سؤال دقيق ، لأن مثل هذه التغيرات لم تحدث ما بين يوم وليلة ، ومن الحماقة أن نحاول أن نجعلها تبدو أكثر فجائية مما كانت - بأن نحدد التحول بدقة ، أو أن نجادل فى الأسماء . فمنذ مليوني سنة لم تكن بعد بشرا ، ولكننا كنا بالفعل آدميين منذ مليون سنة . فلقد ظهر منذ نحو مليون عام مخلوق يمكن أن يسمى « انسان » - هو مواركتص ، وانتشر أبعد من أفريقيا . أما الكشف الكلاسيكى لهو مواركتص فقد تم فى الصين ، ويسمى انسان بكين ، كان عمره نحو اربعمائة ألف سنة ، وكان بالتأكيد أول مخلوق يستخدم النار .

أما التغيرات التى حدثت فى هو مواركتص والتى قادت الينا فقد كانت كبيرة على مدى مليون سنة ، ولكنها تبدو تدريجية مقارنة بتلك التى حدثت قبلها . والمخلوق التالى ، الذى نعرف عنه أكثر ، عشر عليه اول الأمر فى ألمانيا فى القرن الماضى : جمجمة حفريّة كلاسيكية ، وهو يسمى انسان نيانديرثال ، وكان وزن مخه قد وصل بالفعل الى ثلاثة أرطال .

تماما كأن

هذا التشابك بين ملكاته

الا

لينخفض مستوى البحر

